

الرابطه الاجتماعيه بين فائض القيمه السياسيه والتأزم الحضري-

سيدي بلعباس نموذجاً

د. لبعير بلعباس - جامعة الجليلي اليابس- سيدي بلعباس

استعمل مصطلح احياء القصد في الجزائر منذ المرحلة الاستعمارية وما صاحبها من عنف رهيب، وتحولات عميقة في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، للتعبير عن التقسيم العرقي الذي يمنع الاحتكاك والصدام بين المستعمرين والسكان الاصليين. هذه التحولات تزامنت معها موجات الهجرات والنزوح القسري نحو المدن والحوضر، وقد مست هذه الهجرات سكان القرى والبوادي بعد سلب أجود أراضيهم وترحيلهم غصبا الى الأراضي الفقيرة (Nadir Marouf 1981 :P73).

لما كانت السوسيولوجيا الاستعمارية شديدة الاهتمام بتنظيم المجال في الجزائر، بحيث يتم تجنب حركات المقاومة والاحتجاجات الشعبية التي اعقبت الحرب العالمية الأولى، والاصلاحات الهيكلية التي فرضتها أزمة 1929 على الاقتصاد الجزائري باعتباره مكملاً للاقتصاد الفرنسي، ثم الحرب العالمية الثانية 1939-1945 وما فرضته من منظومة قانونية عالمية خاصة بالمستعمرات، وصولاً الثورة التحريرية 1954 وتحولاتها الجذرية، اتجهت السياسة الاستعمارية الى توزيع المدن بشكل ثلاثي: الجزائريون (Autochtones) - الفرنسيون - الاقليات الأوروبية الأخرى. وكانت السلطات الاستعمارية تسعى الى التفريق بين هذه المجموعات الثلاث بحيث يتم ضمان الأمن والاستقرار بعدم الاحتكاك فيما بينها لذلك كانت الاحياء القصدية دائماً تعيش على الهامش بوصف سكانها، غير مرغوب فيهم، وصنفت هذه السياسة من قبل سوسيولوجيا العمران، على أنها عرقية ولم تراع الجوانب الاجتماعية والنفسية (Nadir Marouf : P 77.2).

إن مسألة عزل الأحياء القصدية خلال المرحلة الاستعمارية ستظل هي نفسها في مرحلة ما بعد الاستقلال مع تغيير في الأدوار والوظائف. فهل كانت ومازالت هذه الأحياء تشكل خزاناً انتخابياً وسياسياً يقع في نقطة التماس بين أحزاب المعارضة والأحزاب الموالية للإدارة، أم أصبحت هذه الظاهرة تستغل من قبل الأسر عند حلول كل استحقاقات انتخابية من أجل الظفر بسكن اجتماعي؟ وهل هذه الأحياء بمثابة الجهة الخلفية التي تلجأ إليها المعارضة السياسية للحكم لحشد الجماهير، وتلجأ إليها أحزاب الإدارة لجمع الأصوات الانتخابية؟ وهل هذا الإقصاء عبارة عن أداة بيد الدولة والأحزاب التي تدور في فلكتها؟.

لنحضر هذه الأسئلة اعتمدنا على استراتيجية مكيفة مع الميدان (الممثلين المحليين + سكان الأحياء القصدية)، واستعملنا أداتي المقابلة والملاحظة المباشرة كتقنيتين مناسبتين حسبما تقتضيه الظروف مع كل من: أعضاء المجلس الشعبي البلدي والولائي + سكان الحي القصدية (بومليك - الروشي سابقاً). لقد تم اختيار العينة على أساس ذاتي مرتبط بحكم إقامتي بجانب الحي المذكور وبحكم علاقات الصداقة التي تربطني بالممثلين المحليين، مما سهل لي الأمور في الاتصال والتواصل معهم.

التحضر في الجزائر بين التحديث والتقليد

إن التاريخ الاجتماعي للجزائر يحدثنا عن نوعية التحولات العميقة، التي تراوحت بين العنف الحاد واللطف طيلة الفترة الاستعمارية ومرحلة ما بعد الاستقلال. وقد نتج عن هذا العنف المادي والرمزي تهجير نسبة كبيرة من سكانه نحو المدن الكبيرة والمتوسطة. هذه التأثيرات العنيفة تزايدت كلما تعلق الأمر بتفكيك البنيات التقليدية: التنظيم القبلي - بنيات القرابة - البنيات العقارية - أنماط الملكية - التراتبية الاجتماعية القائمة على الشرف - البنيات السلوكية والذهنية - منظومة القيم. هذه الصيرورة التاريخية تفاعلت فيها صدمتان متداخلتان: صدمة الاستعمار المصاحبة لزوال السيادة على الأرض، وصدمة التفكيك وإعادة البناء و ما صاحبها من تبعية سياسية واقتصادية وثقافية عميقة وطويلة المدى (E WOLF 1974 :P83)3.

في ظل هذا الحراك الاجتماعي تعددت أشكال المقاومة للدفاع عن الرأس مال الرمزي داخل المدن والارياف التي طالها هذا التفكيك اللامتناهي، وبذلك أصبح المجتمع الجزائري مشدود بين ديناميتين قويتين: دينامية التقليد بمؤسساته الاجتماعية وقيمته الثقافية الراسخة، ودينامية التحديث بمنشآته التقنية والتكنولوجية، ومؤسساته الاقتصادية والادارية ونماذجه الثقافية والفكرية الجديدة4(P15: A Touraine). ولم يكتمل هذا المشروع بمجرد تحقيق الاستقلال، بل تسارعت وتيرته عبر تجارب أساليب التنمية في ظل الاقتصاد الموجه ثم المرحلة الانتقالية للتعديل السياسي والاقتصادي الراهن، وما رافقها من صراعات في العلاقات والروابط الاجتماعية الجديدة، والى جانب كل ذلك فرضت التكنولوجيا العالمية سحرها بفعل انشار وسائل الاتصال الحديثة، وغزوها للأجواء الحميمية، والعقول والنفوس والوجدان بإغراءاتها ومعاييرها الجديدة..

لقد افرزت هذه التحولات العميقة التي عرفها المجتمع الجزائري، اصطدامات بين الأبنية العتيقة في تفاعلها مع نظم التحديث وقيمها الجديدة، وكانت النتيجة كما هائلا من التعارض والتناقض في بنية المجتمع، جعلت منه قابل للانفجار والتصادم أو قابل لأن يستوعب هذه التناقضات في اطار علاقات من التفاعل تفرضها أشكال التكيف والرفض والمقاومة، يمكن ان نلتمسها من خلال ممارسات ثقافية يومية لا هي حديثة ولا هي تقليدية ولا هي مختلطة، وإنما هي ثقافة ثالثة تتداخل فيها مجموع أشكال هذه الثقافات الفرعية الخاصة بعالم الريف والمدينة .

كل هذه المحطات التاريخية الطويلة، اعقبتها ظروف ما بعد الاستقلال وما استدعته من اصلاحات هيكلية على المستوى الاجتماعي والاقتصادي(قوانين التسيير الذاتي1963- الثورة الزراعية 1971- الاصلاحات الزراعية واعادة هيكلة القطاع الزراعي 1981- قوانين التجديد الريفي 2006).في ظل مسار هذه الاحداث المعقدة، تصاعدت مواقف العنف الذي تراكمت حوله الصراعات السياسية وقوى المعارضة في الجزائر، وبذلك تورط الريف الجزائري في دوامة Zones Eparses العنف بشقيه الرسمي واللا رسمي، فنتج عن ذلك فقدان نسبة كبيرة من سكان الريف خاصة في المناطق المشتتة5(P585: K Kateb 2002) (Zones Eparses)

جدلية الفقر والسياسة في الاحياء القصدية

تعتبر ظواهر الفقر والتهميش والبطالة في المدن الكبيرة والمتوسطة عن تصدع الروابط العائلية والأسرية في المجتمع الجزائري، سمحت بظهور أفراد فا: قدين للصلة بأسرهم وباحثين عنها مع أشباههم، مستخدمين طرق ووسائل منافية للقواعد والأعراف الاجتماعية والقيم الدينية للحصول على شروط إعادة إنتاجهم، فأدى ذلك إلى بروز جماعات منظمة بحسب حساسياتها النفسية وحاجاتها المادية للاعتداء على الأشخاص وممتلكاتهم..

إن ارتفاع نسبة الفقر والتسول والبطالة في المدن والبوادي الجزائرية خلال العقد الأخير، تعتبر بوضوح عن ضعف وظيفة وآليات الاندماج الاجتماعي للأفراد بسبب تراجع التضامن الأسري وتخلي مؤسسات المجتمع عن القيام بأدوارها لحماية هذه الفئات الهشة من المجتمع، واصبحت آليات الاندماج المهني بواسطة العمل ونظام الحماية الاجتماعية أكثر هشاشة من ذي قبل، وتتجلى هذه الهشاشة في انعدام الاندماج المزدوج:- ضعف اندماج الأفراد في سوق العمل بسبب تزايد عدد البطالين (طلبية الجامعات- المعاهد التكوينية- المنظومة التعليمية)- ضعف الروابط الاجتماعية الأولية التي كانت تربط الأفراد بعائلاتهم، و تبرز هذه الأشكال في التشرذم الذي أصاب الفئات التي تعاني من التمزق الأسري بجميع أشكاله وأهم الخصائص التي تبرزها هذه الاشكالية تتميز بتآكل القيم العتيقة(البركة- الكرم- المروءة...)،مقابل الانغلاق في وجه الحداثة السياسية ومفاهيمها المرتبطة باستقلالية الفرد- الحرية والمواطنة، والمحير في هذه المفارقة : هو أن مجتمع اليوم أصبح يجمع بين عيوب ومساوئ القيم التقليدية وقيم الحداثة.

كل الاستنتاجات السابقة الذكر عبر عنها سكان الحي القصديري (بومليك- الروشي سابقا) بعزوفهم عن التعامل مع المؤسسات الاجتماعية باعتبارها لا تعبر عن وضعهم الخاص، ورغم الاحباطات النفسية التي يتعرضون لها فهم لا يعوضونها بالنشاطات السياسية و الرياضية ويلجأ البعض منهم إلى تعاطي المخدرات واستعمال العنف أو الانخراط داخل مجموعة القوادين(إعادة بيع الخمر والمخدرات والأقراص المهلوسة)محشاشة بتعبير المستجوبين)- استئجار بيوت قصديرية لغرض الدعارة6(المقابلة الميدانية ماي 2013.)).

إن شيوع ثقافة الخوف من العمل السياسي الجموعي تثيرها علاقة هؤلاء السكان بالسياسة حيث يجيبك المستجوب بغياب التماثل مع الطبقة السياسية بمختلف أطيافها (الموالية للسلطة والمعارضة لها) **"كي سيدي كي نعيله"** ويعبر لك عن خروجه وراء الحراك السياسي الجزائري، فهو مشتت القوى امام الثقل الذي تمثله الأحزاب السياسية وجمعيات المجتمع المدني، لأنها تمثل لديه مركزا متضخما ومحتكرا لكل الامتيازات وهو التعبير الذي يعطيه هؤلاء بالاستثمار في المجالات الاخرى، أي خارج مجال التنظيمات الممأسسة والقانونية. وكل سؤال متعلق بالسياسة تلقيه على المستجوب يعد في خانة المحظور والمحرم الخوض فيه. أما عند اقتران السياسة بالدين بتوقف المستجوب ليعلن عن خرق ممنوع يتميز بصفة القداسة(الدين) ومقارنته بمستدخل هجين(السياسة) لأنه من صنع البشر..

إن شروط حدوث القطيعة التي تعني الانتقال من أفق الثقافة المحلية التقليدية إلى أفق الثقافة الحديثة لم تجتمع بعد في عمق المكونات الداخلية والمنطق الاجتماعي لهؤلاء السكان. فالدولة حسب تعبيرهم خلقت جوا مخيفا لكل عمل لا يمت بصلة بالمؤسسات التابعة لها مما سبب الانسحاب وعزوف المواطنين عن العمل الجمعي والتطوعي. هذا الواقع لا يعود كله إلى الاقصاء الاجتماعي بقدر ما يعود إلى التاريخ الخاص بالمجتمع الجزائري وعلاقاته بالسلط على مدار التاريخ وتفاعله معها، ثم أن التراكمات التي ولدتها التناقضات الاجتماعية انتجت جيلا لا يعرف مفهوم روح المواطنة ولا الانتماء الحزبي أو النقابي أو الجموعي، لأنه نشأ في ظروف غير آمنة(العشرية السوداء) فاضطر إلى الالتفاف حول نفسه ومصالحه الأنية والتضامن مع من يشبهونهم في الظروف للتعبير عن روح التمرد على السلطة السياسية، فكل المستجوبين من الحي القصديري ذوي المستوى التعليمي المحدود والامكانيات السوسيو-اقتصادية الضعيفة اعتبروا أن السياسة مجال الأقوياء **"مواليها وصحابها"**-وبتعبير آخر **"صعبة و واعرة"** أو تحيل إلى

"الطمع والحيلة والتلاعب"7(المقابلة الميدانية ماي 2013).. الأمر الذي أدى إلى انعدام الثقة في النسق السياسي ومقاطعة عمليات التصويت، ويعتبرون الممثلين المحليين، ممثلين لمصالحهم الفردية، فتراجعت ثقافة الجماعة والقيادات الجماعية المحلية التي كانت تسيّر الحياة اليومية في مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية السياسية...

أمام هذه المواقف السلبية من كل ممثل سياسي او جمعية سياسية ، والخضوع الطوعي لهذا المنطق الاجتماعي الذي تصنعه تصورات المجتمع في الحي القصديري، تهدف في حقيقة الأمر إلى تقليل حدة التوتر والصراع والتصادم بين الفرد والسلطة من جهة وبين الفرد والآخر من جهة ثانية ، وفي نفس الوقت فرصة لاشباع الحاجات وقضاء المصالح الأنية كالحصول على سكن لائق(سكن اجتماعي) لأن الفوضوي بالتعبير الشائع يدرك جيدا أن العمليات الاحصائية التي تقوم بها مصالح شرطة العمران عبارة عن إجراء إداري روتيني لا علاقة له بعملية توزيع السكنات الاجتماعية ثم أن الشعارات التي ترفعها الاحزاب عند اقتراب المواعيد الانتخابية هي عبارة عن فائض قيمة سياسي تلعب عليه لاستمالتهم وجمع أصواتهم في كل استحقاق8) المقابلة الميدانية ماي 2013..).

هذه الوضعية تضاعفت وازدادت معها المعاناة في حي بومليك(الروشي سابقا) بسبب الابعاء التي يتحملونها يوميا مع جمع المياه الصالحة للشرب من الاحياء المجاورة، بالإضافة إلى تفريغ المظمورات المحفورة في منازلهم لتفريغ المياه المستعملة كون شبكة الصرف الصحي معدومة ، وأغلب هذه الشبكات ترمي بمياهها ناحية واد المكرة المحاذي للحي المذكور، حتى أن الشرطة التي تقوم بعمليات التفتيش للبحث عن مرتكبي الجنج تجد صعوبات للعبور بين ممرات الحي ،فالأمال التي علقها السكان على المسؤولين المحليين أصبحت لا تصدق وتزعجهم وتغضبهم كون أن مشاكلهم تفاقمت وتراكمت بسبب إهمال ولامبالاة المسؤولين المحليين وفي مقدمتهم المنتخبين الذين عودوهم بالوعد على رفع الغبن وتحسين ظروف معيشتهم الاجتماعية وفي مقدمتها حل مشكل السكن بمجرد توليهم زمام تسيير شؤون البلدية أوالولاية عند كل استحقاق انتخابي..

الهوامش:

- 1- Nadir Marouf,1081,Relation Ville-Campagne dans la Theorie et la Pratique, O P U,P73
- 2- Nadir Marouf,opcit,p77
- 3- E Wolf 1974, Les Guerres Paysannes,Ed Maspéro Paris,P83
- 4- A Touraine 1992,Critique de la Modernite, Fayard,Paris P15
- 5- Kamel Kateb 2002,Viiolences Politiques et Migrations au Maghreb ; I N E D ;P 585

- 7- القبلات مع أعضاء المجالس المنتخبة شهر أبريل 2013
- 8- المقابلات التي أجريت مع سكان الحي في شهر ماي 2013